فلسفة الحيـــاة والمـــوت في الشعر الأندلسي

د. مقداد رحيم

قسم اللغة العربية- كلية التربية الأساسية / الجامعة المستنصرية

الملخص

يتناول هذا البحث موقف الأندلسيين من قضية الحياة والموت من خلال الشعر، حيث حاول شعراؤهم التعبير عن أهم ما يتعلق بهذه القضية مثل الإعداد للموت، وصورة ما بعد الموت، والروح والجسد، والتعلق بالحياة، على وفق ما تمليه عليهم عقيدتهم الدينية، فكان الشعر الأندلسي وعاء لأصدق المشاعر الإنسانية فيما يتعلق بهذه القضية التي أسهم الشعراء الأندلسيون، على اختلاف فئاتهم، في التعبير عنها، ونتج عن ذلك العثور على كم هائل من النصوص الشعرية ذات الأهمية الفكرية والفنية.

تناول الشعراء الأندلسيون قضية الحياة والموت تناولا يتفق غالبا وما جـــاءت به العقيدة الدينية الإسلامية وفلسفتها، وقد أتاح لنا البحث في هذا الشأن الوقوف على ما يأتي من القضايا:

أولا: حتمية الموت

أجمع الشعراء الأندلسيون على أنَّ الموت شيء لابد من وقوعه إنْ عـــاجلاً أم آجـــلاً، وأنَّ للمرء عمراً محدوداً لا يتعداه مهما طال، وكأنهم يضعونَ آي القرآن الكريم نصب أعينهم وهم يعبرون عن هذا المعنى، ويذكرون قوله تعالَى: "أينما تكونوا يُدرككم الموتُ ولو كنتم في بروج مشيَّدةٍ"(١)، وقوله تعالى: "كل نفس ذائقة الموت"(٢).

يؤكد أبو عثمان ابن عبد ربه الطبيب، وهو ابن أخي ابن عبد ربه الشاعر أن الموت حقيقة لابد من إدراكها والإيمان بها، وأنه واقع لا محالة:

أبعد نفوذي في علوم الحقائق وطول انبساطي في مواهب خالقي
وفي حين إشرافي على ملكوته أرى طالبا رزقا إلى غـــير خالقي
فأيام عمر المرء متعة ســـاعة تـــمر سريعا مثل لمـــعة بـــارق
وقد آذنت نفسي بتقويض رحلها وأسرع في سوقي إلى الموت سائقي
وإني وإن أوغلت أو زغت هاربا من الموت في الآفاق فالموت لاحقي(٣)

وفي هذا إشارة إلى قوله سبحانه: "قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا"(٤)، وقوله تعالى: "قل إن الموت الذين تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون"(٥).

ويقول أبو بكر بن منخل عند بلوغه ستا وسبعين سنة:

مضت لي ست بعد سبعين حجـــة ولي حركات بعدها وسكـــــون
فيا ليت شعري أين أو كيف أو متى يكون الذي لابد أن سيكون(٦)

ويرى الحميدي أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الأزدي أنه بعد أن قضى من الدنيا كل وطر فلا بد من أن يموت:

ألفت النوى حتى أنست بوحشتي وصرت بـــها لا بالصبـــابة مولـــعا
فلم أحص كم رافقت فيها مرافـــقا ولم أحص كم يممت في الأرض موضعا
ومن بعد جوب الأرض شرقا ومغربا فلابـــد لي من أن أوافـــي مصـــرعا(٧)

ويشيع في قصيدة رثاء النفس معنى الأجل المحدد الذي لا يتقدم ولا يتأخر، وهو معنى الآية الكريمة: "وإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون"(٨)، والآية الكريمة: "وما يـــعمر من معـــمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب"(٩)، ومن ذلك قول جعفر بن عثمان المصحفي:

لي مـــدة لابد أبـــلغها فإذا انقضت أيـــامها مـــت
لو قابلتني الأسد ضارية والموت لم يـــقدر لما خفت
فانظر إلي وكن على حذر فبمثل حالك أمس قد كنت(١٠)

ولعل البلفيقي يشير إلى المعنى ذاته في قوله:

وهبني أعش هل لي إذا شاب مفرقي وولى شبابي هل يباح التسوف؟(١١)

وكذلك معنى فناء الدنيا بأجمعها في إشارة إلى الآية الكريمة: "كل من عليها فان"(١٢)، ومن ذلك قول الأمير عبد الله، ويخاطب نفسه:

أرى الدنيا تصير إلى فنـــاء وما فيها لـــشيء من بقـــاء
فبادر فـــي الإنابة غيـــر لاو على شيء يصير إلى فـــناء
كأنك قد حملت على سرير وصار جديد حسنك للبلاء
فنفسك، فابكها، أو نح عليها فربـــتما رحمت على البكاء (١٣)

وذهب كثير من الشعراء وهم يرثون أنفسهم إلى التخفيف من الإحساس بفاجعة الموت من خلال الاعتبار بموت السابقين من الناس مهما بلغ شأوهم في الحياة، ومهما طالت أعمارهم. يقول أبو عامر ابن شهيد:

يقولون: قد أودى أبـــو عامر العـــلا أقلوا فـــقدما مات آباء عامر
هو الموت لم يصرف بأجراس خاطب بليغ ولم يعطف بأنفاس شاعر
ولم يجـــتنب للبطش مهجة قادر قوي ولا للضعف مهجة صافر

يحل عرى الجبار في دار ملكه ويهفو بنفس الشارب المتساكر
وليس عجيبا أن بين جوانحي هوى كشرار الجمرة المتطايـر
يحركني والموت يحفز مهجتي ويهتاجني والنفس عند محاجري(١٤)

ويقول محمد بن عبد الله بن زمنين الألبيري:

الموت في كل حين ينشر الكفنا ونحن في غفلة عما يراد بنا
لا تطمئن إلى الدنيا وزخرفها وإن توشحن من أثوابها الحسنا
أين الأحبة والجيران؟ ما فعلوا؟ أين الذين هم كانوا لنا سكنا؟
سقاهم الدهر كأسا غير صافية فصيرتهم لأطباق الـثرى رهنا
تبكي المنازل منهم كل منسجم بالمكرمات وترثي البر والـمننا
حسب الحمام لو ابقاهم وأمهلهم أن لا يظن على مـعلوة حسنا(١٥)

ويقول عبد الله بن خلصة:

لئن كنت منعـيا فما الموت وصمة لقد نـعيت قبلي الرسالة والوحي(١٦)

وأما أبو بكر ابن الصائغ فيعزي نفسه بأنه لن يكون آخر الموتى، وأن أحدا لن ينجو من الموت بعده، فما القضية إلا قضية زمن وحسب:

لعلك يا يزيد علمت حالي فتعلم أي خطب قد لـقيت
وإني إن بقيت بمثل ما بي فمن عجب الليالي أن بقيت
يقول الشامتون شقاء بخت لعمر الشامتين لقد شقيت
أعندهم الأمان من الليالي وسالمهم بـها الزمن المقيت
وما يدرون أنهم سيسقوا على كره بكأس قد سقيت(١٧)

إن الإقرار بحلول الأجل عاجلا أم بعد حين جعل جماعة من الشعراء يهونون من أهمية الحياة، ويستشعرون عدم جدواها مهما طال العمر، وعدم أهمية طول الأمل فيها، فهذا ابن حزم يحث نفسه على عدم الاكتراث بملذات الدنيا لأنها متبوعة بالموت:

أقول لنفسي ما مبين كهالك وما الناس إلا هالك وابن هالك
صن النفس عما عابها وارفض الهوى فإن الهوى مفتاح باب المهالك
رأيت الهوى سهل المبادي لذيـذها وعقباه مر الطعم ضنك المسالك
فما لذة الإنسان والموت بـعدها ولو عاش ضعفي عمر نوح بن لامك(١٨)

ويحدث إبراهيم بن علي بن هردوس نفسه بهذا المعنى:

أإبراهيم إن الموت آت وأنت من الغواية في سبات

رجاؤك مثل ظل الرمح طولا وعمرك مثل إبـــهام القطاة(١٩)

ومثل ذلك قول أبي حيان الغرناطي:

وقصر آمالي مآلي إلى الردى وأني، وإن طال المدى، سوف أهلك(٢٠)

وينحرف أحمد بن إبراهيم بن صفوان المالقي عن معنى حتمية الموت قليلا فيرى في موت أعدائه قبله سرورا، ولو بساعة واحدة، وهو معنى يلمح منه التشفي:

يقولون إن الموت حتم على الورى يدير صغير كأسه وكبير
فلا تنـــتسم ريح ارتياح لفقده فإنك عن قصد السبيل تجور
فقلت: بلى حكم الـــمنية شامل وكل إلى رب العباد يصيـــر
ولكن لتقديم الأعادي على الردى نشاط يعود القلب منه سرور
وأمـــن ينام المرء في برد ظله ولا حيـــة للحقد ثم تـــثور
وحسبي بـــبيت قاله شاعر مضى غدا مثلا في العالمين يسيـــر
وإن بقاء المـــرء بعد عـــدوه ولو ساعة من عمره لـــكثير(٢١)

ثانيا: الإعداد للموت:

اهتم الشعراء الأندلسيون، وهم يرثون أنفسهم، بموضوع الإعداد للموت والتحضير للآخرة، يستحوذ عليهم طول تفـــكر في مفارقة الحياة إلى ملاقاة الله سبحانه، والوقوف بين يديه، فمنهم من يحاسب نفسه على ما اقترفت من ذنوب هو أدرى بها، فيحثها على الإقبال على ما يرضاه الله وما يكون شفيعا له في يوم الحساب، ومنهم من هو يائس من رحمة نفسه لضيق فسحة الحياة وقرب الموت، فيطمع في مغفرة من الله ورحمة منه تنجيه من عذاب الآخرة، وكأنهم في ذلك كله ينظرون إلى قوله سبحانه وتعالى (البقرة: الآية ٩٤): "قل إن كان لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين"، وقوله جل وعلا: "وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك اعتدنا لهم عذابا أليما"(٢٢).

ومن هؤلاء الشعراء أبو عمران المارتلي الذي لم ينتبه إلى انغماسه في المعاصي إلا بعد أن أحس بدنو الموت،، فلم يـــتسن له إلا أن يوم نفسه:

إلى كم أقول ولا أفعل وكم ذا أحوم ولا أنزل
وأزجر عيني فلا ترعوي وأنصح نفسي فلا تقبل

وكم ذا تعلل لي ويحها بعل وسوف وكم تمطل
وكم ذا أؤمل طول البقاء وأغفل والموت لا يغفل
وفي كل يوم ينادى بنـــا منادي الرحيل ألا فارحلوا
أمن بعد سبعين أرجو البقاء وسبع أتت بعدها تعـــــجل
كأن بي وشيكا إلى مصرعي يساق بنعشي ولا أمهل(٢٣)

ومنهم أبو الوليد الباجي في قوله:

وجاء نذير الشيب لو كنت سامعا لوعظ نذير ليس من سمعه بـــد
تلـــبست بالدنيا فلما تنكرت تمنيت زهدا حين لا يمكن الزهد
وتابعت نفسي في هواها وغيـــها وأعرضت عن رشدي وقد أمكن الرشد
وأجهدتها في نيل دنيا فلم أرح وكم أسف قد جره ذلك الـــجهد
ولم آت ما قدمتـــه من جهالة فيمكنني عذر ولا يمكن الـــجحـــد
وها أنا من ورد الحمام على مدى أراقب أن أمسي لديه وأن أغدو
وقد فاتني الإعداد بالعمل الذي به كان يرجى القرب والفوز والخلد
وبعدي عن نار الجحيم وحرها وأنى لـــمثلي عن لظى حرها بـــعد
ولم يبق لي إلا رجائي فضل من له الملك والإحسان والجود والحمد
يزحزح بالإيمان عني جهنما ويوردها من دينه الكفر والجـــحد
ولا يشمتن بي كافر كان حقده علي لتوحيدي فما صدق الحقـــد
فيا نفس إن فاتتك بالأمس توبة فبادر ولا يغررك سوف ولا بـــعد
وبادر فإن الله أكرم راحـــم يقوم بعذر العبد إن راجع العـــبد
فلم تـــبق إلا ساعة إن أضعتها فمالك في التوفيق نقد ولا وعـــد(٢٤)

وقد وقف الشعراء الأندلسيون طويلا عند معنى حمل الزاد إلى الآخرة كناية عن الأعمال الصالحة، وفي ذلك إشارة إلى قوله تعالى: "وتزودوا فإن خير الزاد التقوى"(٢٥)، ومن ذلك قول أبي الحجاج يوسف المنصفي:

قالت لي النفس أتـــاك الردى وأنت في بحر الخطايا مقيم
وما ادخرت الزاد قلت اقصري هل يحمل الزاد لدار الكريم؟
واخجلتا منـــه إذا جئـــتـــه والعبد مطلوب بدين قـــديم
وما أرى يطلبني قد درى أني مـــحتاج إليـــه عديـــم
ولست محتاجا إلى شاهد لأن مولاي بـــحالي عليـــم

وحكمه القسط ولا يقتضي هلاك مديان بمال الغريم(٢٦)

ومن ذلك قول أبي عثمان سعيد بن حكم القرشي:

يا رب إني راحل والزاد ما عندي منه للرحيل عتاد

والوقت عنه ضيق ولديك ما يسع الورى لهم وأنت جواد(٢٧)

ولابن شرف قوله في ذلك:

رحلت وكنت ما أعددت زادا ولا قصرت في قوت المقيم

فها أنا ذا رحلت بغير زاد ولكني نزلت على كريم(٢٨)

ولأبي بكر مالك بن حمير الأريولي في هذا المعنى:

رحلت وإنني من غير زاد وما قدمت شيئا للمعاد

ولكني وثقت بجود ربي وهل يشقى المقل مع الجواد(٢٩)

ومن ذلك ما قاله أبو عبد الله المرسي محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل:

قالوا: محمد قد كبرت وقد أتى داعي المنون وما اهتممت بزاد

قلت: الكريم من القبيح لضيفه عند القدوم مجيؤه بالزاد(٣٠)

ويغلب في النصوص الشعرية الخاصة بالإعداد للموت أسلوب مخاطبة الشاعر الأندلسي لنفسه. يقول ابن جبير:

أتاك الرحيل فشمر له فإما إلى جنة أو لنار

وكيف تقر بدنياك عينا ولم تدر أين يكون القرار(٣١)

ويقول الألبيري:

بصرت بشيبة وخطت نصيلي فقلت له: تأهب للرحيل

ولا يهن القليل عليك منها فما في الشيب ويحك من قليل

ولازم قرع باب الرب دأبا فإن لزومه سبب الدخول

فما من مخلص لله إلا على أعماله أثر القبول(٣٢)

ويخاطب مرج الكحل نفسه قائلا:

اذكر ذنوبك أيها ذا الناسي واستغفرن الله رب الناس

واقرع على ما فات سنك نادما واكرع من العبرات في أكواس

وانفض عن الدنيا يديك ولا تكن تعنى بهذي الأربع الأدراس

واكحل جفونك بالسهاد فإنما برضى حبيبك غاية الإيناس

انظر لنفسك قبل وقت رحيلها واذكر بقبرك قلة الإيناس(٣٣)

وكذلك فعل أبو محمد القاسم بن فتح بن يوسف بن الأريولي عندما قال:

إلى كم تقول ولا تفـــعل وتغفل والموت لا يغفـــل
أأمـــلت خلدا فهيهات أن يرى المرء يدرك ما يأمـــل
أم الدهر غرك إمهالـــــه ولو قد تـــحققت ما يمهل(٣٤)

ولعل أبا عمران المارتلي يعارضه في قصيدته التي يقول فيها:

إلى كم أقول ولا أفعـــــل وكم ذا أحوم ولا أنزل
وأزجر نفسي فلا ترعوي وأنصح نفسي فلا تقبل
وكم ذا تعلل لي ويحـــها بعل وسوف وكم تمطل
وكم ذا أؤمل طول البقاء وأغفل والموت لا يغفل(٣٥)

أما الغزال فإن سكنه بجوار المقابر في قرطبة جعله شاهدا على دخول الموتى إليها دون خروج منها، متذكرا الموت باستمرار، وفي ذلك خير موعظة له، ومن العبث أن يهرب من مواجهته باللجوء إلى ملذات الحياة، فيخاطب نفسه قائلا:

أيا لاهيا في القصر قرب المقابر يرى كل يوم واردا غير صادر
كأنك قد أيقنت أن لست صائرا غدا بينهم في بعض تلك الحفائر
تراهم فتلهو بالشراب وبعض ما تلـــذ به من نقر تلك المـــزاهر
وما أنت بالمغبون عقلا ولا حجى ولا بقليل العلم عند التخـــابر
وفي ذاك ما أغناك عن كل واعظ شفيق، وما أغناك عن كل زاجر
وكم نعمة يعصي بها العبد ربـــه وبلوى عدته عن ركوب الكبائر
سترحل عن هذا وإنـــك قـــادم وما أنت في شك على غير عاذر!(٣٦)

ثالثا: صورة ما بعد الموت:

أسهب الشعراء الأندلسيون في وصف صورة ما بعد الموت، فهذا لسان الدين بن الخطيب يصف لحظة الأجل وكيف هي انتقال من الحركة المطلقة إلى السكون المفاجئ، وما يتلوها من الرجوع إلى التراب، وهو انتقال من التقوت بملاذ الحياة إلى الكينونة قوتا لديدان الأرض، يقول:

بعدنـــا وإن جاورتنا البيوت وجدنا بوعظ ونحن صموت
وأنفاســـنا سكنت دفـــعـــة كجهر الصلاة تلاه القنوت(٣٧)

وإلى مثل هذه المفارقة يشير ابن زهر الحفيد وهو طبيب:

تأمــل بــحقك يا واقــفا ولاحظ مكانا دفــعنا إليــه
تراب الضريح عل وجــنتي كأني لــم أمش يــوما عليــه
أداوي الأنام حذار المــنون فها أنــا قد صرت رهنــا لديه(٣٨)

والإيداع في القبر هو مرحلة من مراحل الوحدة والوحشة، حيث لا سمير ولا رفيق، حيث جميع الناس من الأحياء سينشغلون في أمور دنياهم، يقول الغزال:

وما أفارق يوما من أفارقه إلا حسبت فراقي آخر العهد
أنظر إلي إذا أدرجت في كفني وانظر إلي إذا أدرجت في اللحد
واقعد قليلا وعاين من يقيم نعي ممن يشيع نعشي من ذوي ودي
هيهات كلهم في شأنه لعب يرمي التراب ويحثوه على خدي(٣٩)

ويقول أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمي:

ها أنذا في التراب وحدي فلا ظهير ولا نصير(٤٠)

ومع هذا الاستيحاش في ظلمة القبر فإن الإقامة فيه طويلة الأمد. يقول إبراهيم بن عبد الرحمن بن يخلف القيسي المعروف بابن النشا الوادي آشي:

وعن قريب أحل قبرا أطيل في قعره الــمقاما
فبلغوا من رأيتمــوه بعدي يا إخوتي السلاما(٤١)

ويؤكد عبد الكريم القيسي هذا المعنى، وهو يتحدث عن نفسه بضمير الغائب، مشيرا إلى أن إقامته في القبر، ستطول حتى يوم القيامة:

ويجنح للدنيا اعتــذارا وإنه سيرحل عنها عن قريب إلى القبر
ويترك فيها ما حواه لغيــره ويذهب عنها معدما منه ذا فقر
إلى جدث بيت التغرب والبلى يقيم به حتى القيامة والحشر (٤٢)

وأما أبو جعفر أحمد بن أيوب اللماي فيصف القبر ويشير إلى مساحته:

بنيت ولم أسكن وحصنت جاهدا فلما أتى المقدور صيره قبــري
ولم يك حظي غير ما أنت مبصر بعينك ما بين الذراع إلى الفتر(٤٣)

وإذا كان يتعذر على الأهل والأصدقاء والأحباء أن يرافقوا الميت في قبره، ويؤنسوا وحشته، وكل منهم سوف يضحك بعد بكاء ويسلو بعد فراق، فلم يبق إلى الأمل بالله سبحانه وتعالى، وإلى هذا المعنى يشير أبو بكر محمد بن ولاد:

أرجوك يا رب في سري وفي علني إن الرجاء إليك اليوم يحملنــي
من ذا يؤنــسني في القبــر منفردا إن لم تكن أنت يا مولاي تؤنسني

وسوف يضحك خل قد بكى جزعا بعدي ويسلو الذي قد كان يندبني(٤٤)

وتناول جملة من الشعراء الأندلسيين فكرة اللقاء بالأحبة بعد الموت، ومنهم لسان الدين بن الخطيب:

هل يباح الورود بعد ذياد أو يتاح اللقاء بعد انتزاح؟

وإذا أعوز الجسوم التلاقي ناب عنه تعارف الأرواح(٤٥)

وله وقد حزن على موت زوجته حزنا شديدا وكان دفـنها بنفسه في مدينة "سلا" المغربية، يقول:

أما وقد غاب في تراب سلا وجهك عني فلست بالسالي

فانتظريني فالشوق يقلقـني ويقتضي سرعتي وإعجالـي

ومهدي لي لديك مضجعا فعن قريب يكون ترحالي (٤٦)

ولعل أحمد بن سعيد بن سليمان بن جودي يشير إلى مثل هذا بقوله عندما أيقن بحلول موته:

وأد إلى عرسي السلام وقل لهـا عليـك سلامي إلى موقف الحشر (٤٧)

وإلى هذا المعنى أيضا ذهب الوزير أبو بكر الصائغ بقوله:

وسألنا متى اللقاء فقالوا الـ ـحشر قلنا: صبرا إليه وحزنا(٤٨)

أما العاقبة بعد الموت، والحساب في يوم القيامة، وهي مرحلة تالية للقبر، فقد أخذت حيزا كبيرا في قصيدة رثاء النفس الأندلسية، ومن المعاني التي تدور حول هذه العاقبة الحيرة والسؤال في ذهن الشاعر عنها وكيف تكون في اليوم الآخر. يقول أبو عمران موسى بن عمران المارتلي:

كأن بي وشيكا إلى مصرعي يساق بنعشي ولا أمهـل

فيا ليت شعري بعد السؤال وطول الـمقام لما أنقل!(٤٩)

وما هذه الحيرة إلا لأن الشاعر كان قد انغمس بملذات الدنيا وارتكب المعاصي، ولم يتوق لهذه العاقبة ولم ينتبه إلا بعد الإحساس باقتراب الأجل المحتوم، كما هو حال أبي إسحاق الألبيري:

هي الأقدار والآجال تأتـي فتنـزل بالمطـبب والطبـيب

تفوق أسهما عن قوس غيب وما أغراضها غيـر القلـوب

فـأنى باحتراس من جنـود مؤيـدة تمـد من الغـيوب

وما آسى على الدنيا ولكـن على ما قد ركبت من الذنوب

فيا لهفي على طول اغترارى ويا ويحي من اليوم العصيب
إذا أنا لم أنح نفسي وأبكي على حوبي بتهتان سكوب
فمن هذا الذي بعدي سيبكي عليها من بعيد أو قريب؟(٥٠)

ومثله أبو بكر عبد الرحمن بن محمد بن مغاور الشاطبي الذي أرقه التفكير في ما ارتكب من ذنوب ثقال عند حضور الموت:

قل لمن سال عن شكاتي وحالي لست أشكو غير الذنوب الثقال
ليث شعري وهي الجبال الرواسي من يجرني من صعق هذي الجبال
وهي دائي وليس لي من دواء غير صفح لذي الرضى والجلال
فإذا مت مسلما فانتقالي من محل الغرور خير انتقال
وإذا كان للإلاه مرادي لا أبالي من ميتة لا أبالي
إن ظني بالله ظن جميل وهو حسبي في مبدإ ومآل(٥١)

وفي قصيدة رثاء أخرى لنفسه يأمل عفو ربه لما اقترف من تلك الذنوب، بعد أن ينسب الجزع الخوف من العاقبة لأهله ومحبيه الذين تولوا دفنه:

أودعوني بطن الضريح وخافوا من ذنوب كلومها بأديمي
قلت: لا تجزعوا علي فأني حسن الظن بالرؤوف الرحيم
واتركوني بما اكتسبت رهينا غلق الرهن عند مولى كريم(٥٢)

ويتعلق ابن شهيد بمثل هذا الرجاء فيقول مخاطبا صديقه ابن حزم:

فلا تنس تأبيني إذا ما ذكرتني وتذكار أيامي وفضل خلائقي
وحرك له بالله مهما ذكرتني إذا غيبتني كل سهم غرانق
عسى هامتي في القبر تسمع بعضه بترجيع شاد أو بتطريب طارق
فلي في ادكاري بعد موتي راحة فلا تمنعوها لي علالة راهق
وإني لأرجو الله فيما تقدمت ذنوبي به مما درى من حقائقي(٥٣)

أما عاقبة المذنبين فما هي إلا النار والعذاب، فهذا ابن حمديس يحدث نفسه ويتذكر موقفه في ذلك اليوم وما يمكن أن يناله من عقاب شديد:

مغربك القبر الذي يكون منه مطلعك
إن فرقتك تربة فالله سوف يجمعك
وللحساب موقف أهواله تروعك

كم جر ما أشفقت من لمسك منه إصبعك
فكيف بالنار التي من كل وجه تلذعك
يراك ذو العرش إذا ناديته ويسمعك
فثق به ولا يكن لغيره تضرعك(٥٤)

ومنهم من يكتفي بالتلميح والإشارة إلى ما تكون عليه العاقبة مثل محمد بن عبد الله بن الغازي بن قيس القرطبي:

ماذا تعاين هذي العين من عجب عند الخروج من الدنيا إلى الله؟(٥٥)

ويؤمل ابن الناظر الحسين بن عبد العزيز بن محمد أن يحظى بدار النعيم ويوضع موضع الأبرار في الجنة:

وأملت من مولاي نظرة رحمة يكون بها مني إليه بلاغ
فأحظى إذا الأبرار قيل لهم غدا هلموا إلى دار النعيم فراغوا(٥٦)

ويعارضه أبو عبد الله محمد بن علي بن يوسف السكوني، فينظم رثاءه لنفسه على وزن قصيدة ابن الناظر وقافيتها، وهي قافية صعبة، ويؤكد معنى الرجاء بحسن العاقبة بعد أن يتفكر المسلم بحتمية الموت وأن يعيشه قبل أن يحدث:

ومن لم يمت قبل المملات فإنه يراع بهول بعده ويراغ
فيا رب وفقني إلى ما يكون لي به للذي أرجوك منه بلاغ(٥٧)

ويقول الفقيه علي بن أحمد بن سعيد بن حزم مشيرا إلى شدة العاقبة:

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا فجائعه تبقى ولذاته تفنى
إذا أمكنت منه مسرة ساعة تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا
إلى تبعات في المعاد وموقف نود لديه أننا لم نكن كنا(٥٨)

وقد شاعت على ألسن الشعراء الأندلسيين وهم يرثون أنفسهم معاني الجزاء بجنس العمل، فإما أن يفوز المسلم في الآخرة بجنات النعيم فيكون فيها من الخالدين، وإما أن يعاقب بجهنم يصلى فيها نارا تستعر، وإلى هذا المعنى ذهب أبو الحسن منذر بن سعيد البلوطي بقوله محدثا نفسه:

فلو كنت تعقل ما ينقضي من العمر لاعتضت خيرا بشر
فمالك لا تستعد إذا لدار المقام ودار المقر ؟
أترغب عن فجأة للمنون وتعلم أن ليس منها مفر ؟

فإمـــا إلى جنة أزلفـــت وإمـــا إلى سقـــر تســـتعر(٥٩)

ويقول الوزير الحسن بن رحيم:

ولا خـــطـــة غير إحدى اثنتين فإمـــا نـــعيم وإمـــا عذاب(٦٠)

ويقول القاضي الشريف ابن الجياب الغرناطي:

معمى كتاب فكه "احذر" فهذه سفينة هذا العمر قاربت الشطا

وإن طالما خاضت به اللجج التي خبطت بها في كل مهلكة خبطا

وما زلت في أمواجها مـــتقلبا فـــآونة رفعـــا وآونة حـــطـــا

فقد أوشكت تلقيك في قعر حفرة تشد عليك الجانبين بـــها ضغطا

ولست على علم بما أنت بعدهـــا ملاق، أرضوانا من الله أم سخطا!(٦١)

ويقول الحجاري:

وقد حان ترحالي فقل لي عاجلا على أي حال تنقضي عزماتـــي

أأثني بـــخير أم أقول تـــمـــثلا كما قالت الخنساء في السمرات

إذا لم يكن فيكن ظل ولا جنى فأبعدكـــن الله من شجرات(٦٢)

وما هذه العاقبة إلا بحسب ما كان للمسلم من عمل في دنياه. يقول الألبيري:

وقد سل الحمام علي نصلا سيقتلني وإن شاكت سلاحي

ويحملني إلى الأجداث صحبي إلى ضيق هـــناك أو انفساح

فأجزى الخير إن قدمت خيرا وشرا جزيت على اجتراحي(٦٣)

وأما عبد الكريم القيسي فيشير إلى هذا المعنى مع فضل تفصيل فيقول متحدثا عن نفسه بضمير الغائب:

فـــيبصر أهوالا ويلقى شـــدائدا يشيب لها رأس الفتى الحدث العمـــر

ويسأل عن أعماله في حياتـــــه ويجزى على ما كان من خير أو شر

فـــذو الخير مثواه الجنان مرفـــعا وذو الشـــر مأواه من النار بالقعـــر

وشيآن كل منهما هـــو بالجـــزا كفيل نعيم أو جحيم كما تدري(٦٤)

ولهذا السبب يؤكد الشعراء معنى عمل الخير في الدنيا ليحسن الجزاء في الآخرة. يقول عيسى بن عبد الله بن قرلمان الخازن المعروف بأبي الأصبغ:

كأنني سامع بعدي وقد ذهبت نفسي ووافاني المحذور من أجلي

قولين والنعش موضوع على جدثي قولا علي بـــمكروه وآخـــر لي

من شامت بي أو محـــض الوداد ولم ينفع ولا ضر إلا سالف العـــمل(٦٥)

وإلى هذا المعنى يشير ابن شهيد بقوله:

وما أنا إلا رهن ما قدمت يدي إذا غادروني بين أهل المقابـــر(٦٦)

ولأبي عمر ابن عبد البر النمري الحافظ قوله:

تذكرت من يبكي علي مـــداوما فلم ألف إلا العلم بالدين والخبر

علوم كتـــاب الله والسنـــن التي أتـــت عن رسول الله مع صحة الأثـــر

وعلم الألـــى من ناقديه وفهم مـــا له اختلفوا في العلم بالرأي والنظر(٦٧)

ويتعلق المؤمن بحاجته للدعاء والاستشفاع، ويتشبث بالاستغفار وطلب العفو والرحمة من الله سبحانه وتعالى، وقد شاعت مثل هذه المعاني في قصيدة رثاء النفس الأندلسية. يقول أبو يحيى محمد بن عاصم الغرناطي:

أنا مما اقتـــرفت في نـــقمات كدرت من مواهب العيش شربي

أنا مـــما جنيت في ظلمـــات طبـــقت لي ما بين شرق وغرب

حملتني أوزارها كـــل ثقـــل أنا منـــه ما بيـــن خوف ورعب

وغزاني للابـــتلا أي جـــيش أنا منـــه ما بين طـــعن وضرب

وبجدي بالسيئات انـــتـــفاء حال فرض الدعاء منـــه بحجب

فبفكري في أمرها طار عقـــلي وبخوفي من شرها طاش لـــبـــي

قد أقضت من مضجعي في حياتي وهي أدهى إذا امتطى الترب جنـــبي

لست أخشى بؤسا ولا أتقـــيه من سواها عند انفرادي بربـــي

دهمـــتني بكل خطب وإنـــي لست أ{جو سواه في كشف خطبي

طرقتني بكل كرب وإنـــــي منـــه مستوثـــق بتفريج كـــربي(٦٨)

ويطلب أبو اسحاق ابن خفاجة من الواقفين بقبره السلام عليه والدعاء له بالرحمة:

خليلي هل من وقفة بتـــألـــم على جدثي أو نظرة بترحـــم

خليلي هل بعد الردى من ثنية وهل بعد بطن الأرض دار مخيم؟

وإنا حـــيينا أو ردينا لإخـــــوة فمن مر بي من مسلم فلـــيسلم

وماذا عليه أن يقول مـــحيـــيا ألا عم صباحا أو يقول ألا اسلمي

وفاء لأشلاء كرمن على البلـــى فعاج عليها من رفات وأعظم(٦٩)

وإلى مثل هذا المعنى ذهب أبي إسحاق الألبيري وزاد ذكره بعد موته من لدن إخوته وأصدقائه وبالصفات الحسنة دون السيئة والغض من هفواته ففي ذكرهم سيئاته شقاء له:

فيا إخوتي مهما شهدتم جنازتـــي فقوموا لربي واسألوه نـــجاتي
وجدوا ابتهالا في الدعاء وأخلصوا لعــل إلاهي يقبل الدعوات
وقولوا جميلا إن علمتم خلافــه وأغضوا على ما كان من هفواتي
ولا تصفونـــي بالذي أنا أهلــه أشقى وحلونـــي بـــخير صفات (٧٠)

أما المعتمد بن عباد فيستسقي لقبره فيقول:

قــبر الغريب سقاك الرائح الغــادي حقا ظفرت بأشلاء ابـــن عباد!
كفاك، فارفق بما استودعت من كرم رواك كل قــطوب البرق رعاد
يبكي أخاه الذي غيــبت وابــلــه تحت الصفيح بدمع رائح غادي
حــتى يجودك دمع الطل منهمــرا من أعين الزهر لم تبخل بإسعــاد
ولا تــزل صلوات الله دائــمة على دفينك لا تــحصى بتعداد(٧١)

ويجمل ابن حمديس الكلام على ما يحدث له بعد الموت من مساءلة الملكين له، وتجشمه جواز الصراط دون زلل يوم القيامة ليفوز بالجنة ويتفادى نار جهنم:

ما الذي أعددت للموت فقد قــدر الموت بلا شك عليــك
أذنوبا كاثرت عــد الحصى بئس ما استكثرت من كسب يديك
بئس ما يسمع من تعظيمها ملكا القـــبر بـــه من ملكــيك
أي خطب فادح في رقــدة يــوقظ الحشر إليها مــقلتــيك
وصراط لست بالنــاجي إذا وطئــته زلــة من قدمـــيــك
فلك الويــل من النار إذا مــقلة الرحــمن لم تنــظر إليك(٧٢)

ويشير في قصيدة أخرى إلى قضية فناء الدنيا، والبعث والنشور، والبقاء لله وحده سبحانه، وينص على مصطلحين آخرين هما العالم السفلي وهو الحياة الدنيا، والعالم العلوي وهو الحياة الآخرة:

أرى العالم العلوي يــفنى جميعــه إذا خلت الدنيا من العالم الســفلي
ويــبقى على ما كان من قبل خلقه إلاه هدى أهل الضلالــة بالرســل
ويــبعث من تحت التراب وفوقــه نشورا، إليه الفضل، يا لك من فضل(٧٣)

وهكذا رأينا أن صورة ما بعد الموت لم تكن لتتعدى الحدود التي رسمتها العقيدة الإسلامية السمحاء، وهي صورة خلا منها الشعر العربي في عصر ما قبل الإسلام، ولاسيما في إطار موضوعنا، فخلت، تبعا لذلك، معانيها لدى الشعراء في عصر ما قبل الإسلام الذين "تجدهم في رثائهم لأنفسهم يسخرون مما يصنع لهم بعد موتهم"(٧٤).

رابعا: الروح والجسد:

يرى عبد الجليل بن وهبون أن الروح سراب أو شعلة تتصل بالتراب والماء فيتخلق الجسد، ثم ترجع عنه عند الموت وتخلص منه، ولكن الخلاص منه ليس كالاتصال فيه، ففي الخلاص مشقة وعناء، مشيرا إلى ما يواجهه المرء ساعة مفارقة الحياة:

نفسي وجسمي إن وصفتهما معا آل يذوب وصخرة خلقـــاء
ما النفس إلا شعلة سقطت إلـــى حيث استقل بها الثرى والماء
حتى إذا خلصت تعود كما بدت ومن الخلاص مشقة وعنـــاء(٧٥)

وفي قوله: "تعود كما بدت" إشارة إلى خلود الروح في مقابل فناء الجسد.

وإلى مثل هذا الرأي يذهب ابن الطفيل محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسي الوادي آشي (ت ٥٨١هـ) ويرى أن الروح نور يتردد في طين هو الجسد لمدة معلومة محددة، وعند انتهاء هذه المدة التي هي حياة الفرد يتخلى هذا النور (الروح) عن الطين (الجسد) ليرقى إلى مقام رفيع ويتركه للكفن، فما تلك المدة بين دخول النور في الطين ومفارقته له سوى هدنة على فساد باطن، وهو معنى قوله "هدنة على دخن":

يا باكيا فرقة الأحباب عن شحط هلا بكيت فراق الروح للبدن
نـــور تـــردد في طيـــن إلى أجل فانماز علوا وظل الطين للكفن
يا شد ما افترقا من بعدما علقـــا أظنها هدنة كانـــت على دخن (٧٦)

ويشير أبو عامر بن سوار الشنـــتريني إلى مفارقة الروح للجسد بعد الموت، ويعلن أن لا قيمة للجسد بعد أن تفارقه الروح، فهو مفض إلى التفسخ والتعفن، ولذلك فلا يستحق البكاء عليه، والرثاء له، وأما الروح فهي باقية، وفي بقائها موجب لترك البكاء عليها أيضا:

يا لقـــومي دفـــنوني ومضـــوا وبنوا في الطين فوقي ما بنوا
ليت شعري إذ رأوني مـــيـــتا وبكوني أي جزأي بـــكوا ؟
أنـــعوا جسمي فقد صـــار إلى مركز التعفين أم نفسي نعوا؟
كيف ينعون نفوسا لـــم تـــزل قائمات في حضيض وبجـــو(٧٧)

وإلى معنى تلاشي الجسد وبقاء الروح ذهب علي بن أبي جعفر بن همشك، وأقر بأن لا فائدة من وجود قبر لجسد لن يكون له بقاء:

لعمرك ما أردت بقـــاء قبـــر وجسمي فيه ليس له بـــقـــاء(٧٨)

ويؤكد أبو إسحاق الألبيري هذا المعنى من حيث أن الروح هي المحرك الأساس للجسد، فهي بمثابة القطب الذي تدور حوله وبه أدوات الجسد، ولذلك فهو يسمع ما يقال عنه لأن روحه بقي حيا بعد فناء جسده، وكذلك يتكلم مع محبـــيه ويناجيهم عن طريق الإيحاء:

وإن كنت ميتا بين أيديكم لـــقى فروحي حي سامع لـــنعاتـــي
أناجيكم وحـــيا وإن كنت صامتا ألا كلكم يومـــا إلي سياتي
وليس يقـــوم الجسم إلا بروحـــه هو القطب والأعضاء كالأدوات (٨٩)

وقد تجرأ بعض الشعراء في التطرق إلى فكرة دورة الحياة، وإن لم يتعمقوا فيها، فهذا أبو بكر ابن الصائغ التجيـــبي السرقسطي الذي قال عندما بلغه موته:

ألا يا رزء والأقـــدار تـــجري بما شاءت نـــشا أو لا نشاء
هل انت مطارحي شجوي فتدري وأدري كيف يحتمل القضاء
يـــقولون الأمور تكـــون دورا وهـــذا فـــقده فمتى اللقاء؟(٨٠)

ويثير منظر الجبل ابن خفاجة فيراه باقيا شاهدا على تجدد العصور، وتعاقب الأجيال والأزمنة، مع استمرار الحياة فيجسد على لسانه فكرة بقاء الحياة من خلال دوران الأرواح بين أجساد البشر وشخوصهم التي تفنى باستمرار:

أصخت إليه وهو أخرس صامت فحدثني ليل السرى بالعجائب
وقال: إلى كم كنت ملجأ قاتل وموطن أواه تبـــتـــل تـــائب
وكم مر بي من مدلج ومؤوب وقال بظلي من مـــطي وراكب
ولاطم من نكب الرياح معاطفي وزاحم من خصر البحار غواربـــي
فما كان إلا أن طوتهم يد الردى وطارت بهم ريح النوى والنوائب
فما خفق أيكي غير رجعة أضلع ولا نوح ورقي غير صرخة نادب
وما غيض السلوان دمعي، وإنما نزفت دموعي في فراق الصواحب
فحتى متى أبقى ويظعن صاحب أودع مـــنه راحلا غـــير آئـــب
وحتى متى أرعى الكواكب ساهرا فمن طالع أخرى الليالي وغارب(٨١)

ويتمنى أبو عامر بن ينـــق الشاطبي أن تكون دورة الحياة في الشخص نفسه، إذ تتجدد حياته برجوع روحه مباشرة إلى جسده نفسه بعد خروجها، وبهذا يكتب له الخلود، ولكن هذا الأمر لن يتعدى كونه أمنية تعز على التحقيق، ويبقى جسد الإنسان غير جدير بها:

ما أحسن العيش لو أن الفتى أبدا كالبدر يرجو تمامـــا بعد نقصان
إذ لا سبيل إلى تخلـــيد مأثـــرة إذ لاسبيل إلى تخليد جثمـــان(٨٢)

وهكذا رأينا أن الشاعر الأندلسي لم يتعمق كثيرا في تناول الروح والجسد أكثر مما كان يسمح له بذلك، على وفق ما نعرفه من ضيق مجال التفلسف هناك.

خامسا: التعلق بالحياة

على الرغم من سيادة الإيمان بالموت والاعتراف بمغادرة الحياة في رثاء النفس في الشعر الأندلسي، فإن كثيرا من الشعراء لم يتوانوا عن التصريح بتعلقهم بالحياة، وأسفهم الشديد لانتهائها ومغادرتهم لها، وكان هذا أمرا غير مستغرب لدى أصحاب الجاه والسلطان والثروة، وآخرين ممن تعلقوا بأسباب الحياة من لهو ولذة ومتعة واسترخاء، تجافوا عن تعاليم الدين الحنيف.

على أن هؤلاء الشعراء أنتجوا شعرا على قدر كبير من الأهمية من حيث توفره على جمال الأسلوب وقوة النظم وبراعة المعاني، وما ذاك إلا لأنهم تشبثوا بالحياة بأقوى الأسباب، وأفرغوا من أجلها شديد عاطفتهم، وعميق حبهم، وحقيقة نزوعهم، وعظيم حرصهم على اقتطاف المزيد من ملذاتها، وفي مقابل ذلك نجد الهدوء والاستسلام وضعف العاطفة من أهم ما يطبع شعر المؤمنين الصالحين الذين آمنوا باليوم الآخر، وأيقنوا بشديد العقاب وجزيل الثواب، فضعف شعرهم لضعف تعلقهم بالحياة وهي زائلة وهم يودعونها، وكأنهم يتمثلون الآية الكريمة: "وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متع وغرور"، أو الآية الكريمة(٨٣): "فتمنوا الموت إن كنتم صادقين"(٨٤)، وشتان بين تمني الحياة والتشبث بها، وبين طلب الموت والتعلق بالآخرة.

هذا أبو الحسن بن الفضل الأريولي يأسف على أنه سيغادر الدنيا قبل أن يبلغ ما يرجوه منها:

فوا أسفي أتدركني المنايا ولم أبلغ من الدنيا مرادي؟
وما هو غير أن أدعى وحسبي حيا الإخوان أو حرب الأعادي(٨٥)

وإلى مثل هذا المعنى أشار أبو الحجاج البلوي في قوله:

أؤمل آمالا ولست بعارف أأبلغها أم يبلغ الموت قبلها
وللمرء نفس لا تزال بحرصها تمني وتهوى أن تبلغ سؤلها(٨٦)

وهو لشدة تعلقه بالملذات وارتكاب الخطايا من أجلها لا يجنح للتوبة والإحسان على الرغم من إحساسه بالخطأ وإعجابه بالتوبة إذا صدرت من سواه:

ألا يا ويح نفسي ما لها إذ تميل بها إلى الخيرات تابـــى
فما لي لا أتوب من الخطايا ويعجبني إذا ذو الذنب تابا!(٨٧)

وأما الألبيري فإنه على الرغم من موته إلا أنه يبقى متعلقا بأسباب الحياة، يطلب من إخوانه وأحبته أن يدعوا له بالنجاة من عذاب الآخرة، وأن يذكروه بخير، ويعترف بأنه لم يفارق الحياة إلا مجبرا، وإن زفراته ما زالت متعلقة بالدنيا:

فيا إخوتي مهما شهدتم جنازتي فقوموا لربي واسألـــوه نجاتـــي
وجدوا ابتهالا في الدعاء وأخلصوا لعل إلاهي يقبـــل الدعـــوات
وقولوا جميلا إن علمتم خلافه وأغضوا على ما كان من هفواتي
ولا تصفوني بالذي أنا أهله فأشقى، وحلونـــي بخير صفات
ولا تتناسوني فقدما ذكرتكم وواصلتكم بالبـــر طول حياتـــي
وبالرغم فارقت الأحبة منكم ولما تفارقنـــي بكم زفراتـــي(٨٨)

وعندما يحيق الموت بابن شهيد فإنه يتمنى الهرب منه إلى رأس جبل شاهق يتغذى بقليل من الحبوب ويحتسي النـــزر من ماء صخوره حيث يظن الخلاص:

ولما رأيت العيش ولى برأسه وأيقنت أن الموت لاشك لاحقي
تمنيت أني ساكن في غيابـــة بأعلى مهب الريح في رأس شاهق
أذر سقيط الحب في فضل عيشة وحيدا وحسي الماء ثني المفالـــق (٨٩)

ويصل التشبث بالحياة والحرص عليها من قبل بعض الشعراء إلى البكاء جزعا من الموت، ومن هؤلاء محمد بن سعد بن أحمد بن لب الذي يقول:

أباد البـــين آجـــاد التـــلاقي وحالت بيننا خيل الفـــراق
فجودوا وارحموا وارثوا ورقوا على من جفنه سكب المآقي(٩٠)

وقد يعظم حزن الشاعر وهو ينظر في أمر مفارقته الحياة، فيرى أن بكاءه وحده على هذا القدر المحتوم لا يكفيه، ولا يقوم بحقه، فيطلب من أحبته أن يساعدوه على ذلك ليخف عنه عبء هذا القدر الذي لا يختص به وحده، وهذا ما كان لدى البلفيقي:

ألا ساعدوني في البكاء فأدمعي غزار ولكن ما قضت حق أشجاني
فيا كمدي رد الدموع لباطني لتسقي أوجالـــي فتثمر أشجانـــي
أبكي شبابا قد مضى صفو مائه وأقبل شيب أبيض مثل أكفانـــي
مضى كل أقراني وأهلي وأسرتي وما قد لقوا يا حسرتي سوف يلقاني
بكيت لبلوى كلكم مبتلى بهـــا ففي الحق أن تبكوا على ما قد ابكاني(٩١)

ويبلغ التشبث بالحياة أقصى مدياته عندما لا يكتفي الشاعر بالبكاء على نفسه، بل يحمل الموجودات وعناصر الطبيعة وزر مفارقته الحياة، ويرى لبكائها عليه بعد موته تخفيفا عنه وقد واجه قدر الموت مجبرا، وتعظيما لشأنه في الحياة، وأسفا على أنه مات، وأغلب هؤلاء الشعراء هم ممن كان لهم شأن خطير في الحياة في مجالات السياسة والشهرة والعلم، ومنهم ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن أحمد بن رحيم الذي يقول:

تقارعني أيدي النوى كل ساعــة وتخصمني الدنيا بألســنة لــد
تساتر حربـــي ثم تظهر سلمها وتنـــوي هلاكي وهي تسفر عن ود
لذلك سل البرق صفحة نصله وصلصل صوت الرعد خوفا عل فقدي
ألم يأن للأيام أن تقضي النوى وتبكي كما يبكي الغمام على بعدي؟(٩٢)

ومثل هذا المعنى تردد لدى ذي الوزارتين ابن زيدون إذ قال:

ألم يأن أن يبكي الغمام على مثلي؟ ويطلب ثأري البرق منصلت النصل؟
وهــلا أقامت أنجم الليل مأتمــا لتندب في الآفاق ما ضاع من تتلي؟(٩٣)

وينضم الرمادي إلى هذا الرعيل من الشعراء فيقول في هذا المعنى:

على كبري تهمي السحاب وتذرف ومن جزعي تبكي الحمام وتهتف
كأن السحاب الوارفات غواســلي وتلك على فقدي نوائح هــتف(٩٤)

وأما الملك المعتمد بن عباد فإن أقرب من يبكي عليه بعد موته هو أدوات ملكه وآيات سلطانه، ومنها سرير الملك وتاجه وقصوره "الزاهي" والزاهر" و"الثريا" والوحيد"، وقد أشار إلى ذلك في عدد من قصائده، فمنها قوله:

غريب بأرض المغربين أسيــر سيبكي عليه منبر وسرير
وتندبه البيض الصوارم والقــنا وينهل دمع بيــنهن كثير
سيــبكيه في زاهيه والزاهر الندى وطلابه، والعرف ثم نكير(٩٥)

ومنها قوله كذلك:

بكى المبارك في إثر ابن عــــباد بكى على إثر غزلــان وآســاد
بكت ثرياه لا غمــت كواكبها بمثل نوء الثريا الرائــح الغادي
بكى الوحيد، بكى الزاهي وقبته والنهر، والتاج، كل ذلــه بادي(٩٦)

ومن الشعراء الأندلسيــين من كان يطمع بحياة أطول، ويمني نفسه بأمل واسع في الحياة ويأسف لانقطاعها، ومنهم محمد بن عبد الله الأنصاري البلنسي بقوله:

النفس تطمع والأقدار واسعة وبين هذين عمر المرء ينقطع

وكلما زدت سنا زادني أملي فالعمر ينقص والأيام تــتسع(٩٧)

بل هناك من تمنى ألا ينقضي العمر، فلا يبلغ العمر المدى حتى يرجع ليبدأ من جديد، وهو نزوع إلى الخلود الذي لا سبيل إليه لمخلوق، وهذا هو المعنى الذي أراده أبو عامر بن ينق الشاطبي في قوله:

ما كان أحسن لو أن الفتــى أبدا كالبدر يرجو تماما بعد نقصان(٩٨)

ومن وجوه تعلــق الشعراء بالحياة رغبتهم في بقاء ذكرهم مخلدا بين الناس، بعد الموت، وهو نوع من أنواع الاعتزاز بالذات والفخر بها، ومن هؤلاء الشعراء ابن الحداد الوادي آشي الذي يقول:

إلى الموت رجعي بعد حين فإن أمت فقد خلدت خلد الزمان مناقبي

وذكري في الآفاق طــار كأنــــه بكل لسان طيب عذراء كاعب

ففي أي علم لم تــبــرز سوابــقي وفي أي فن لم تــبرز كتائبــي(٩٩)

ومنهم أبو الفضل بن شرف الذي يرى في تخليد مآثره بعد موته تعويضا له عما فاته في حياته من كثير مما كان يطمع فيه، ومن ذلك منــزلة سامية تليق به بين الناس:

لعمرك ما حصلت على خطير من الدنيا ولا أدركت شــيا

وها أنا خارج منــها سليــبا أقــلب نادما كلتا يــديــا

وأبكي ثم أعلم أن مــبكـــا ي لا يجدي فأمسح مقلتــيا

ولم أجزع لهول الموت لكــن بكيت لــقلة الباكــي عليــا

وأن الدهر لم يعلم مكــانــي ولا عرفت بنـــوه ما لديــا

زمان سوف أنشر في نــشرا إذا أنا بالحمام طــويت طــيا

أســر بأنــني سأعيش ميــتا بــه ويسوؤني أن مــت حــيا(١٠٠)

ومثل هذا الاتجاه إلى الحياة والتشبث بها والتعلق بأسبابها يندر أن يسهم فيه الشعراء من الفقهاء ورجال الدين والمؤمنون الصالحون الذين يرون فيه اعتراضا على مشيئة الله، بل هم يتشوقون إلى لقائــه، باستثناء ما كان طلبا للذكر والدعاء بعد الموت طلبا للمغفرة، فضلا عن أنه يتذبذب بين الضعف والقوة تبعا لضعف العامل السياسي أو قوته، فكلما قوي العامل السياسي ضعف الاتجاه إلى الدين، وقوي التشبث بالحياة، وكلما ضعف العامل السياسي قوي الاتجاه إلى الدين، والتشبث بالآخرة، ولقد كان الأمر على هذه الوتيرة من التذبذب في العصور السياسية كافة في الأندلس.

خاتمة البحث:

بدا واضحاً أن الشعر الأندلسي كان وعاءً شافّاً للتعبير عن أعمق المشاعر الإنسانية تجاه أكثر الموضوعات أهميةً وخطورة في حياة الفرد والمجتمع، ذلك هو موضوع الحياة والموت، إذ استوعب التعبير عن حياة الأندلسيين في جانبيها الروحي والمادي، وفلسفتهم في الحياة والموت موقفهم منهما، على وفق ما تمليه عليهم عقيدتهم الدينية، كما دلَّ على إسهام عدد كبير جداً من الشعراء، ومنهم الكبار والمشهورون، فيه، فضلاً عن إسهام عِلْية القوم من الرؤساء والملوك والأمراء والوزراء والقوَّاد ورجال الدولة على اختلاف منازلهم، وكذلك رجال الدين والفقهاء والزهَّاد والمتصوفة، فأدَّى ذلك إلى كثرة بواعث النظم، كما نتجَ عن ذلك كله كَمٌّ هائل من النصوص الشعرية التي كان الكثير منها ذا قيمةٍ فنيةٍ عاليةٍ تبعاً لظروف الشاعر، وطبقته الشعرية، ومقدار تعلقه بالحياة، وعمره، ومكانته في المجتمع،كما عبر عن قوة هاجس الشعر لدى الشعراء الأندلسيين ونظمهم له حتى في أشدِّ ساعات الحياة صعوبة وحرجاً وهي ساعات الاحتضار.

هوامش البحث

(١) النساء: الآية ٧٨. (٢) آل عمران: الآية ١٨٥.

(٣) طبقات الأمم: ص١٨٨-٩، جذوة المقتبس: ٤٠٠، وبغية الملتمس: ٥٢٧، والوافي بالوفيات: ٢٣٨/١٥.

(٤) الأحزاب: الآية ٦١.

(٥) الجمعة: الآية ٨.

(٦) نفح الطيب: ١١٧/٤.

(٧) معجم الأدباء: ٢٨٢/١٨، ونفح الطيب: ١١٤/٢.

(٨) الأعراف: الآية ٣٤.

(٩) فاطر: الآية١١.

(١٠) الحلة السيراء:٢٦٧/١.

(١١) شعر البلفيقي: ص٦٠، وفيه: "وهبني أعيش هل إذا شاب مفرقي"، ولا يستقيم معه الوزن.

(١٢) الرحمن: الآية ٢٦.

(١٣) الحلة السيراء: ١٢٢/١، والبيان المغرب: ١٥٥/٢.

(١٤) الذخيرة: ٢٠٤/١.

(١٥) مطمح الأنفس: ص٢٦٧، وجذوة المقتبس: ص٥٧،ونفح الطيب: ٥٥٤/٣.

(١٦) الوافي بالوفيات: ٥٤٣/١٧.

(١٧) نفح الطيب: ٢٣/٧.
(١٨) طوق الحمامة: ص٢٩٨.
(١٩) الوافي بالوفيات: ٥٧/٦.
(٢٠) برنامج الوادي آشي: ص٧٥.
(٢١) الديباج الـمذهب: ص٤٣.
(٢٢) النساء: الآية ١٨.
(٢٣) تحفة القادم: ص١٣٢.
(٢٤) الغنية: ١٥٤/١.
(٢٥) البقرة: الآية ١٩٧.
(٢٦) تحفة القادم: ص٨٤-٥.
(٢٧) تحفة القادم: ص ٨٥.
(٢٨) (٣) تحفة القادم: ص ٨٤.
(٢٩) تحفة القادم: ص ٨٤، وفي نفح الطيب: ٣٤٨/٤ أبو بكر مالك بن جبير.
(٣٠) معجم الأدباء: ٢١٢/١٨.
(٣١) تراجم مغربية من مصادر مشرقية: ص ١١٤.
(٣٢) ديوانه: ص ١٠٥-٦.
(٣٣) مرج الكحل: ص١٢٢.
(٣٤) أخبار وتراجم أندلسية: ص٥٣-٥٤.
(٣٥) تحفة القادم: ص ١٣٢.
(٣٦) الغزال: ص٨١-٨٢.
(٣٧) (٢) نفح الطيب: ١١١/٥.
(٣٨) التكملة لكتاب الصلة: ص٢٦٨-٩، وأزهار الرياض: ٢٧٥/١، ونفح الطيب: ٤٣٤/٣.
(٣٩) ديوانه: ص ٦٤.
(٤٠) المطرب: ص٢٣٣.
(٤١) بغية الوعاة: ٤١٧/١.
(٤٢) ديوانه: ص٤٦٣.
(٤٣) الإحاطة في أخبار غرناطة: ٢٤٣/١ وفيه: "ولم يكن" ولا يستقيم معه الوزن.
(٤٤) تحفة القادم: ص٣٨، والوافي بالوفيات: ١٧٦/٥.
(٤٥) نفح الطيب: ٥٠٩/٦-١٠.
(٤٦) نفاضة الجراب: ص٢٠٥.
(٤٧) المقتبس في تاريخ الأندلس: ص ١٤٩.
(٤٨) قلائد العقيان: ص٧٣٠.
(٤٨) الغصون اليانعة: ص١٣٧، والمغرب في حلى المغرب: ٤٠٧/١، ونفح الطيب: ٢٩٦.

(٤٩) ديوانه: ص٣٧.

(٥٠) ابن مغاور الشاطبي: ص٢٢٨.

(٥١) زاد المسافر: ص٨١، والتكملة لكتاب الصلة: ٤٠/٣، وتحفة القادم: ص٢٥، ونفح الطيب: ٣٣١/٣.

(٥٣) مطمح الأنفس: ص٢٠١.

(٥٤) ديوانه: ٣٤٨.

(٥٥) بغية الوعاة: ١٤٠/١.

(٥٦) بغية الوعاة: ٥٣٦/١.

(٥٧) نفح الطيب: ٥١٦/٥.

(٥٨) جذوة المقتبس: ص٣٠٩، وبغية الملتمس: ص٤١٦، والمعجب في تلخيص أخبار المغرب: ٤٧/١.

(٥٩)مطمح الأنفس: ص٢٤٩.

(٦٠) ابن خفاجة: ص٤١٣.

(٦١) نفح الطيب: ٤٤٠/٥.

(٦٢) المغرب في حلى المغرب: ١٠١/٢.

(٦٣) ديوانه: ص٤٩.

(٦٤) ديوانه: ص٤٦٣.

(٦٥) جذوة المقتبس: ص٢٩٩، وبغية الملتمس: ص ٤٠٣.

(٦٦) قلائد العقيان: ص٢٠٤.

(٦٧) نفح الطيب: ٣٢٧/٤.

(٦٨) جنة الرضا: ١٤٤/١-٥.

(٦٩) تحفة القادم: ص٢٤.

(٧٠) ديوانه: ص٦٣.

(٧١) ديوانه: ص٩٦

(٧٢) ديوانه: ص ٣٤٦.

(٧٣) ديوانه: ص٣٦٤.

(٧٤) شعر الرثاء في العصر الجاهلي: ص٢٠١.

(٧٥) الذخيرة: ٢٨٦/٢-٧.

(٧٦) تراجم إسلامية ومشرقية وأندلسية: ص١٦٣.

(٧٧) الذخيرة: ٢٨٧/٢.

(٧٨) الروض المعطار: ص٣٤٩.

(٧٩) ديوانه: ص٦٣.

(٨٠) قلائد العقيان: ص٧٢٦، ونفح الطيب: ١٩/٧.

(٨١) ديوانه: ص٣٦٧-٨.
(٨٢) نفح الطيب: ٣/٥٩٦
(٨٣) آل عمران: الآية ١٨٥.
(٨٤) الجمعة: الآية ٩٤.
(٨٥) أدباء مالقة: ص٤٠٦.
(٨٦) زاد المسافر: ص٨٢، وأدباء مالقة: ص٣٣٠.
(٨٧) أدباء مالقة: ص٤٠٢.
(٨٨) ديوانه: ص٩٩.
(٨٩) ديوانه: ص١٠١.
(٩٠) نيل الابتهاج بتطريز الديباج: ص٤٦٠.
(٩١) شعر البلفيقي: ص٧٧-٧٨.
(٩٢) قلائد العقيان: ص٣٠٤.
(٩٣) ديوانه: ص٢٦٢-٣.
(٩٤) مطمح الأنفس: ص٣٢٠، ونفح الطيب: ٤/٣٩.
(٩٥) ديوانه: ص٩٨.
(٩٦) ديوانه: ص٩٥.
(٩٧) أدباء مالقة: ص١٠٢.
(٩٨) نفح الطيب: ٣/٥٩٦.
(٩٩) نفح الطيب: ٤/٤٩.
(١٠٠) نفح الطيب: ٣/٢٢٩.

Philosophy of life and death in poetry andalusian

Dr. Migdad Rahim

This paper deals with the position of Andalusians of the issue of life and death through the hair, where he tried to poets to express the most important thing about this case, such as preparing for death, and the image after death, the soul and the body, and attachment to life, according to the dictates of their religious beliefs, was poetry Andalusian pot to believe human feelings regarding this issue which shares poets Andalusians, different categories, in its expression, and resulted in finding a tremendous amount of poetic texts with the intellectual and artistic importance.